خطبة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والصلاة والسلام على شفيع كل من لله أسلم، سيدنا محمد النبي القرشي الهاشمي العربي الأكرم، وعلى آله الطيبين الطاهرين، والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين، والرضى على الصحابة الصادقين المخلصين، حفاظ الشريعة وحماة الدين، ومن اتبع سبيلهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

حينما تسموا الطموحات فوق الأنانيات الضيقة، سابحة في فضاءات الإنسانية الرحبة، ستتعدى دنيوية الشهوات المغررة التي ما إن تنكشف حتى تصبح عيوباً في حق أصحابها، عندها تكون مقاصد الخير عند هذا الإنسان باتساع الكون وما فيه من إبداعات المبدع العظيم، وتتحول هذه الرؤية إلى وحدة متكاملة ولوحة متناسقة مشبعة بجمال رباني منسجم مع قوله تعالي مخاطباً رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ثم تعلن أن الإسلام رسالة إلهية وهي وإن جاءت بلسان عربي مبين إلا أنها كانت للناس كافة: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ:٢٨].

من هنا فإن الحديث عن شمولية الإسلام وعدالته وسماحته ورحمته وما فيه من خير ومنفعة للإنسانية جمعاء، لا ينبغي أن يكون على ألسنتنا كلاماً منمقاً من غير جوهر ولا مضمون، بل يجب أن يكون مشبَّعاً بمعانيه العظيمة السامية بحيث

ينعكس كل ذلك على وعينا وتصرفاتنا مع هذا الكون بناسه وجماده وحيوانه ولنا في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة حسنة، من أجل الوصول إلى النموذج الإنساني القويم ،الذي يرى أن المعرفة الإنسانية نسبية من حيث قابليتها للخطأ والصواب ، وهذا ما عرف به أئمة الهدى من علماء المسلمين حين نقل عنهم قولهم (رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب) وكان هذا التزاماً بما جاء في الذكر الحكيم: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، وبدون هذه القاعدة الربانية لا يمكن إقامة أي حوار بين مختلفين من أجل التوصل لمعرفة الحقيقة ووصولاً للحق والتواصي به والعمل بقواعده والوقوف مواقفه بغية إدراك العمل الصالح وبلوغه وتحقيق مقاصده الربانية السامية.

ومن أخطر الأمور التي أزّمت العقل المسلم، تجاوزه لمراتب علّة خلق الإنسان، فوضع العبادة أولا، وهذا مخالف تماما لمراد الله سبحانه كما حدده كلامه المنزّل، (القرآن الكريم)، الذي بين لنا أن الاستخلاف أولا ثم الإعمار ثم العبادة بمفهوم الدعاء للإستعانة بالتوفيق الإلهي لإنجاز المهمتين الأساسيتين وهما، أن يكون الإنسان خليفة الله في أرضه، ولن تتحقق هذه الخلافة إلا بالمهمة الثانية وهي ممارسة بذل الجهد كاملا فكريا وعضليا لإعمار الأرض وتطويع الإمكانيات لتحقيق رفاهية الإنسان وتسهيل معيشته، ومن هنا نرى نحن أبناء المدرسة الفقهية المالكية أن تحقيق مقاصد الشريعة مفتاح لفهم الدين وصحيح تطبيقه، هذه النظرة الحضارية تختلف تماما عن رؤية الأعراب وفهمهم الجاهلي للدين، ليظهر الفرق بين سماحة الإسلام ورحمته، وتيسيره ورفعه لكل حرج، وهمجية العنف الجاهلي الذي رسخه الخوارج على امتداد التاريخ وشوهوا به جمال الدين الإسلامي. نعمل في هذه الرسالة على توضيح ذلك والله المستعان وعليه التوكل وحده دون سواه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مفهوم التقدم في الإسلام

قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. [البقرة: ٣٠-٣٣].

لن يغيب عن نباهة المتأمل في هذه الآيات واضحة الدلالة، أن السبب الأساس لخلق الإنسان، أن يكون خليفة لله في الأرض، التي خلقت لآدم وذريته ولم يخلقوا لها. وقد ميزهم خالقهم لممارسة مهام الاستخلاف بالقدرة على التعلّم، وتوظيف معلوماتهم في الابتكار والإبداع والتصرف فيما خلقه الله لهم، - الكون وكل ما فيه-، ذلك الخلق الذي أذهل الملائكة وعرفوا أنهم أمام أعظم مخلوقات الله المبدع، الدّالة على عظيم قدرته، فكانت استجابتهم لأمر السجود، لعظمة الله المتمثلة في آدم وقدراته التي ميزه الخالق بها على بقية المخلوقات.

ولن يغيب كذلك عن نباهة المتأمل المستعين بالفتح الإلهي ليفهم دلالات الآيات وحكمتها قبل أحكامها، أن الاستخلاف لن يتحقق إلا بتوظيف عاقل للمعلومات التي علمها الله لآدم ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، تعليما تعريفيا مع قدرة على التصرف بجهده العقلي والعضلي للقيام بأعباء الاستخلاف، خَلقا وإبداعا

وابتكارا وتصرفا، في كل ما هو موجود في الكون الموضوع تحت تصرف آدم وبنيه من بعده، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾. [إبراهيم:٣٢ - ٣٤]، وقال جل من قائل: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان:٢٠]، ويؤكد على أن من يخشى الله حقيقة ويعرفه معرفة تملأ قلبه خشية، هم العلماء الذين يتدبرون ويتصرفون فيما سخره الله لعباده، بقراءة تأملية لكتاب الله المنظور (الكون) على هدي من كتابه المسطور (القرآن)، فيقول جل جلاله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧ ، ٢٨].

هذا يؤكد لنا أن الله يباهي ملائكته في الملإ الأعلى، بما يقوم به الإنسان من ذرية آدم من إبداعات وقدرات عالمة حكيمة، يتصرفون بها فيما سخره الله لهم ووضعه تحت تصرفهم، لإعمار الأرض المستخلفون فيها، وهنا يبرز المعنى الدال على مفهوم (الجهاد الأكبر). أي بذل أقصى حدود الجهد لتحقيق الاستخلاف بإعمار الأرض واستعمارها، وتسخير إمكانياتها لراحة بني آدم ورفاهيته، ولا شك أن هذه المهمة في حاجة لجهد عظيم، وإرادة قوية، تجعل اللجوء إلى الله طلبا للعون والدعم والتوفيق ضرورة، وهنا يكون معنى الدعاء بالمعنى الذي ورد في هذه الآيات: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو

ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٥- ٥٨] وقد سأل الصحابة رضوان الله عليهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن (الدعاء) قال هو (العبادة)، روى الترمذي في سننه وغيره، عن الصحابي النعمان بن بشير ﷺ حديثا صحيحا حسنا، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (**الدُّعاءُ هُو العبادةُ، ثمَّ قرأَ:** ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾). وعبادتي هنا لا معنى لها الا دعائي، وهذا يفسر المعنى الحقيقي لدلالة الآيات السابقات، «يعبدون» بمعنى «يدعون»، فالله غني عن عبادة خلقه، فما يريد منهم من رزق أو طعام، ولكنهم يعبدونه بالدعاء لتمكينهم من القيام بأعباء الاستخلاف.

هذا يضع الإنسان في مفهوم غير قابل للتأويل المخالف، ولا يتطرق إليه الشك، أن (الإنسان) خلق ليبدع ويبتكر ويتصرف بجهده العضلي والعقلي، جهادا مفروضا عليه فرض عين، لإعمار الأرض التي استخلف من الله فيها، فالهدف الأساس هو الاستخلاف، والعبادة وسيلة يستعين بها على أداء مهمته بطلب الدعم والتوفيق والمساندة من الخالق القادر المبدع الرحمن الرحيم، الله سبحانه وتعالى في عليائه باهى الملائكة بقدرة أعظم خلقه على التعلم والقدرة على التصرف بإرادة حرة في توظيف ما تعلمه، لم يباهي بعبادة آدم وحمده لله بمجرد انتباهه ونفخ الروح فيه عطس فقال : (الحمد لله)، بل بقدرته على التعلم والتصرف، لدرجة أمر الملائكة بالسجود لعظمة الله التي ظهرت في هذا المخلوق العظيم، ومن هنا يكون المفهوم الحقيقي للتقدم هو تحقيق أعلى معدلات الرفاهية باستغلال ما سخره الله لبني آدم من إمكانيات، وإن العمل على تسهيل حياة البشر وتحقيق رفاهيتهم، بالعمل والإبداع، من أفضل الأعمال الأساسية التي يحبها الله في خلقه ويباهي بها ملائكته، بذلك تدرك مقاصد الشارع الحكيم، بتحقيق مصالح العالمين (شركاء الوجود) المرسلة، خاصة بني آدم الذين اختصهم الله بالتكريم، فمحبة خلق الله دليل على حب الخالق، وإعمار الأرض أداء مفروضا تأكيدا لسبب

خلق بني آدم، وتحقيقا للاستخلاف الذي أراده الله من خلق آدم وبنيه.

الحقيقة الأخرى أن هذا الإنسان في أمس الحاجة إلى مجتمع يبدع من أجله، ويستعين بأفراده لتعزيز ذلك الإبداع، فهو اجتماعي بطبعه، لذلك فالحاجة لعقد اجتماعي، ينظم العلاقة بين أفراد المجتمع ضرورة ملحة لازمة لتحقيق مهمة الاستخلاف، فالشريعة المنظمة للمجتمع وتعزيز رقي أفراده ومدنيتهم، مجال آخر يبين عظمة هذا المخلوق المستمدة من عظمة خالقه، قال تعالى في الآيات ٢٦، ٢٧، ٢٨، و ٢٩، من سورة ص: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾. من هنا يتأكد لنا أن العدل الاجتماعي ونظام الحكم الرشيد، من أهم مهام الاستخلاف في الأرض، وكما هو واضح بيّن من البيان الإلهي الذي تبيّنه هذه الآيات البيّنات، وهذا لن يتحقق إلا إذا كان الخليفة الرباني هو الذي يحكم بين الناس بشرع الله وأمره، ولا يحكمهم لتحقيق مطمعه بمنطق (لا أريكم إلا ما أرى)، فالفرق بيّن واضح صريح بين أن يحكم بين الناس، كما كان سيدنا داود عليه السلام، أو يحكم الناس كما كان فرعون. فكل حاكم لا يكون إلا فرعونا، مفسدا في الأرض متجبرا، والفساد ضد الإعمار، والرفق ضد التجبر، وهذا هو الفرق بين المصلحين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والمفسدين في الأرض، بين المتقين والفجار، وهذا ما فهمه الصحابة من تعاليم الشرع الحكيم الذي استوعبوه على هدي ممن أوحي له النص (القرآن) وفهمه (السنة)صلى الله عليه وآله وسلم، دون غيره، فكانت ممارستهم للخلافة تقتصر على الحكم بين الناس بما أنزل الله (أطيعوني ما أطعت الله فيكم) كما قال الصديق ﷺ وهو يقدم نفسه للناس حكما اختاروه بإرادة حرة ليحكم

بينهم بما أنزل الله فقط ولا يحكمهم، بل لا يتجرأ على أن يعلوا عليهم وهم من ولوه تنفيذ أمرهم، وهكذا كان النهج والمنهج طيلة فترة الخلافة الراشدة.

لا شك أن الأمر تغير بعد أن فقدت الخلافة رشدها، وتحول الخليفة من (حكم) إلى (حاكم)، منحرفا عن ممارسة الخلافة الراشدة على منهج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الملتزم بقواعد الشرع الحكيم، إلى الملك العضوض على منهج فرعون، ولتوضيح ذلك قال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل ٩٠ – ٩٣]، و قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي تتخذون أيمانكم وسيلة للغدر والخديعة والخيانة تطيبون بها نفوس الناس ثم تخونونهم وتخدعونهم بنقضها، وإنما يفعلون ذلك لتكون أمة، وهم (الحالفون)، أربى وأزيد سهما من زخارف الدنيا من أمة وهم (المحلوف لهم)، في مثال لاستهجان الانتهازية والتزييف وهي صورة قريبة مما يحدث في البلاد التي يعمها الفساد السياسي، خاصة في الأنظمة البرلمانية، حيث يتملق المرشحون الناخبين بوعود ينقلبون عليها بعد تحقيق مآربهم، وصوّر ذلك كالمجنونة التي تغزل نسيجا ثم تنقضه أنكاثا، وهذا يناقض مقاصد الشرع الرباني الذي يأمر بالتعايش بين الناس في مجتمعات تبنى على قواعد عدل فطري طبيعي، ديدنه الفضل والإحسان في كل مقصد وغاية وعمل، ناهيك عن دعوته الملحة لكل ترابط أسري واجتماعي إيتاءً

وتعاطفا مع كل ذوي القربى، باعتبار الأخوة بين البشر (كلكم لآدم)، ذلك الترابط الذي لا يكون إلا من أجل التعاون على البر والتقوى واحترام المعروف الذي تعارف الناس بفطرتهم السليمة على سلامته وصحته حتى بات عرفا يعاب على كل من يخرج عليه، ومقاومة كل عدوان وبغي وكل منكر أنكره الناس بفطرتهم الإنسانية السامية.

مما يتقدم يتضح أن التطور الحقيقي وعلّة الخلق هو تحقيق مقاصد الشرع في الاستخلاف، بتسخير الإمكانيات لتحقيق مصالح الناس المرسلة رفاهيةً وعدلا، وأن العبادة الربانية الحقيقية هي اللجوء إلى الله بالدعاء لتمكين العابد من القيام بمهام الاستخلاف، وأن أكثر الناس خشية لله وقربا منه هم العلماء المحققين لمفهوم الاستخلاف، بتحقيق القدرة على الابتكار والإبداع الذي يبين عظمة الخالق في عظمة مخلوقه (بني آدم)، الذين خلقهم ليكرمهم، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠-٧٢]، تكريم ومسئولية وانتماء واختيار لإمام يتحملون مسؤوليته يحاسبونه بعدل إلهي لا يقترب منه الظلم مطلقا، المشكلة في سلامة الاختيار ببصر وبصيرة، فمن كان أعمى في اختياره سيكون أعمى في الدارين.

هذا هو التطور والرقي والتقدم، وهذه هي الأسباب الحقيقية لخلق الإنسان ومهمته الأساسية التي توصله إلى الرضاء الرباني، ليكون في زمرة من ﷺ ورضوا عنه، فأين المسلمون اليوم من هذه المفاهيم ؟؟!!.

لا يغيب عن فهم الفاهمين المتابعين لكتاب الله، المتأملين في آياته على هدي من أرسله الله بالحق بشيرا ونذيرا صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء : ١٠٥]،إدراك أن الله ميز آدم وذريته من

بعده بما يمكنه من إدراك الحق إنه (العقل)، ذلك المخلوق المعجز، الذي لم يخلق الله أكرم منه، فبه يعرف ويعبد، روى الطبراني في المعجم لأوسط عن أبي أمامة ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (**لما خلق الله العقل قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال وعزتي ما خلقت خلقا أعجب إلي منك بك آخذ وبك أعطي وبك الثواب وعليك العقاب**).

وللعقل مراتب ثلاث، العقل الكسبي وقد جعله الله لكل إنسان بر وفاجر مؤمن وكافر، وسيلة الإنسان للوصول إلى (علم اليقين)، يستعمله في التعلم والتعليم والتصرف، علومه مكتسبة بالتعليم والتجريب، تجد الكثير من المبدعين الفاهمين المخترعين من جميع الملل والنحل والعقائد، ولكنهم مارسوا بعقولهم ما خلقهم الله لأجله، إعمار الأرض، فكانوا مبدعين متفوقين، حققوا المراد الإلهي من خلقهم دون اعتبار لكفر أو إيمان، المراد الإلهي تحقق فيهم، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، أراد الإنسان مبدعا فكان، بإرادة الله المسيرة لإرادة المبدع.

والمرتبة الثانية هي العقل الذوقي، الموصل إلى إدراك (عين اليقين) يبني المعرفة على المشاهدة والشهادة بها، وهو عقل يهتدي به الناس الى منظومة القيم لا يدرك حقيقة الأشياء إلا بمعايشتها، مثل المعرفة الذوقية التي لا يدرك كنهها إلا بالتذوق، فبالذوق فقط يمكن معرفة الفرق بين الحلو والمر والحار والمالح، وكذلك الإيمان فهو ذوق قبل كل شيء ومن ذاق عرف حلاوته في قلبه، وهذه المرتبة من الإيمان لا تدرك إلا بإعمال العقل والتأمل، يقول جل من قائل: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩٢]، فالتأمل العقلي في ملكوت الله يوصل كلّ عاقل إلى

حقيقة الوجود، فيدرك بها عظمة الموجد سبحانه، يتذوق بموجب ذلك حلاوة الإيمان بوجود الخالق وقدرته، ويدرك أن هذا الوجود لا بد له من سبب بعد أن عرف المسبب، فيقضي كل وقته وفي كل أحواله في ذكر الخالق المسبب، محاولا تذكر سبب إيجاده، ذكرا ايجابيا يحقق الاستخلاف والإعمار، خوفا من السقوط في الخزي بجهل سبب الوجود، وهو عذاب معنوي يؤلم العقلاء أكثر من إيلام العذاب الحسي بالنار المؤلمة ماديا، وهذه هي مرتبة التقوى، وهي تبدأ بمعرفة الله الحق والالتزام بأوامره ونواهيه، فالتقوى ليس أن تعرف، بل هي الالتزام بما عرفت من الحق، (تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) العصر، هذه المرتبة توصل الإنسان إلى أن يكون متهيأ لتطور العقل إلى مرتبته الأعلى وهي العقل الوهبي القادر على استلام العلم اللدني، وبه يدرك الإنسان معرفة (حق اليقين)، ليعرف بها الإنسان حقيقة الأشياء بعد أن عرفها تصورا ثم مشاهدة، ثم المعرفة الكاملة العالمة، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقد ذكر هذه المراتب في آية واحدة فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، فالمشكاة مثال للعقل الكسبي، فكما أن المشكاة مستعدة لأن تكون وعاء للنور، فكذلك النفس بالفطرة مستعدة لأن يفيض عليها نور العقل، ثم إذا قويت بالعلم ومعرفة مبادئ المعقولات فهي الزجاجة (علم اليقين)، فإن بلغت درجة تتمكن من التصرف في المعقولات بالفكرة الصائبة، فهي الشجرة ذات أفنان فكذلك الفكرة ذات فنون (عين اليقين)، فإن كانت أقوى وبلغت درجة الملكة والابتكار والإبداع بالحدس المعقول فهي الزيت، فإن كانت أقوى من ذلك فيكاد زيتها يضيء كأنه يشاهدها ويطالعها فهي المصباح، ثم إذا انطلقت في علوم وهبية بعقل هيأه الله بالتجليات

اللدنية (حق اليقين)، فهو نور على نور، نور العقل المكتسب على نور العقل المتذوق، الموهوب ربانيا.وإن جعلت الآية مثالا للعقل النبوي فيجوز، لأنه مصباح يوقد من شجرة مباركة نبوية، زيتونة أمّية لا شرقية (طبيعية) ولا غربية (بشرية)، يكاد زيتها يضيء ضوء الفطرة وإن لم تمسسه نار الفكرة، نور من الأمر الرباني على نور من العقل النبوي، يهدي الله لنوره من يشاء.

هذا يبين لنا أن التقدم وصناعته أهم مجال يتعبد به العبد لملاقاة رضاء ربه، وتحقيق سبب وجوده، والدعاء،هو التعبد الذي يطلب العبد به العون من الله لتحقيق المقصد الأساس، وهو إعمار الكون بما يفيد الخلق لتحقيق الاستخلاف، بهذا يكون الإسلام دعوة للتقدم والتطور تعارض الجهل وتدافع الجاهلية، فكل تفسير خاطئ لعلّة الوجود لا يكون إلا دعوة جاهلية حتى وإن تلبست بالإسلام وحولته لمجرد طقوس، فالجاهلية الدينية، لا تصنع إلا التخلف.

يقول الحق جل وعلا في محكم التنزيل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس ٩٩-١٠٢]،ويقول سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۖ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠]، وقوله جل من قائل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ

يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٦]، إن المتأمل في الآيات من السور الواردة أعلاه يتضح له حقيقة المسئولية الملقاة على عاتق بني آدم، تلك المسؤولية الناتجة عن إرادتهم الحرة في الاختيار، بإعمال العقل الذي سيدلهم حتما على حقيقة وجود الخالق المبدع الذي تجلت عظمته بخلقهم وما خلق لهم في الكون، وتمكينهم من استغلاله واستعماره والتصرف فيه، إن مجرد التأمل فيما حققه هذا الإنسان من إبداعات وابتكارات مذهلة وتطور عظيم يدل على عظمة هذا المخلوق العجيب الدّال على عظمة خالقه، حيث لا يمكن تصور أنه خلق اعتباطا أو مصادفة أو نتيجة لتطور وارتقاء وانتخاب قامت به الطبيعة المجردة دون إرادة غائية تحركها، عظمة الإنسان تدل على عظمة خالقه الذي أراده خليفة له في أرض خلقت لأجله، حتى تظهر فيها قدرته على الإبداع والتألق، الجديرين بأن تؤمر الملائكة بالسجود لعظمة الله التي ظهرت فيه، وتجلّت به، فهو أعظم خلق الله دون شك. نقيض ذلك غياب العقل وعدم القدرة على التأمل والتدبر الذي سيوقعهم في خطأ يجرهم إلى الخطيئة وأكبر الخطايا إنكار الخالق في وجود المخلوق، وإنكار المؤثر في وجود الأثر، فلا شك أن كل أثر يدل على أثير، وكل مخلوق لا بد له من خالق، وهذا النظام الدقيق الذي يسير عليه الوجود لا يمكن أن يكون صدفة لا بداية مقصودة لها، المشكلة تكمن في عدم قدرة العقل الذي يقف عاجزا عن تصور الخالق لعظمته التي تفوق قدرة العقل على التصور.

إن عدم الشعور بوجود الخالق وإدراك عظمة قدرته، ناتج عن قلب طبع عليه وختم، فوجّه العقل في اتجاهات مضللة تصيب البصيرة بالعمى والنظر سليم، وتحوّل الأحياء إلى موتى وهم يتحركون ويتنفسون، ولا شك أنه سيحشر يوم القيامة أعمى عقابا منطقيا لعدم إعمال النظر بفطرة سليمة، عجزت عن إبصار أكبر ما يمكن أن يدل عليه الوجود، الله الموجود في كل شيء، لا يغيب إلا عن رؤية أعمى البصر والبصيرة، وقد يتورط في إنكار وجود الله علماء ومخترعين

ومبدعين، وهذا يدل على عظمة خالقهم الذي خلق له مراتب العقول، فكان عقلهم الكسبي الذي وهبه الله لكل فرد من ذرية بني آدم، فكان في جينات خلقهم يتمتع به برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم، فلن يدرك الإيمان إلا من نظر لخلقه وخلق ما حوله بعقله الذوقي الفطري السليم غير الملوث أو المضلل، فالإيمان ذوق بالدرجة الأولى يتذوقه المؤمنون بعقولهم الذوقية، الموصلة إلى أعلى درجة في الإدراك البشري بالوصول إلى مرتبة العقل الوهبي، الذي تتجلى عليه المواهب الربانية فيزداد تألقا وإبداعا وصفاء ونقاءا وإنسانية راقية تعيده إلى حالة (أحسن تقويم) التي أرادها الله له وخلقه عليها.

لا شك أن المنكر لوجود الله سبحانه ضال ومضل مهما كانت درجة تألق عقله الكسبي المادي، وقدرته على الإبداع والإبتكار، كذلك من لا يستعمل العقل في الإبداع والتألق والمساهمة في إعمار الكون وممارسة الاستخلاف، يكون قد خالف مراد الله سبحانه الذي أراده خليفة، مهما قضى من وقت في تعبد كهنوتي، يعبد به الطقوس، ويحاكي الأوامر دون تدبر في مقاصد الآمر، ودون إدراك لحقيقة أن الله لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين، الاثنان سواء في عدم إدراكهما لعلة الخلق وأسباب الوجود، وأفضل الخلق من يستعمل أقصى جهده العقلي والعضلي في إعمار الكون واستعماره، مستعينا بالله الخالق المبدع القادر، ولا غاية له في ذلك سوى مرضاة الله والفوز بالجائزة الكبرى أن يلقاه ويكون من الذين رضى خالقهم عنهم ورضوا عنه. هكذا يكون التدين السليم الصحيح، وما عداه لا يكون إلا كهنوتا نهانا الله عنه، ساد في أمم سابقة وأفسد سلامة رسالات رسل سابقين،وأفرز كهان يلوون ألسنتهم بكلام يوهمون به الناس أنه من عند الله وهم على الله كاذبون، ولا يحسب من العلماء من لا يدله علمه على حقيقة الوجود وعظمة الخالق، فالعلماء المتدبرين في ملكوت الله القادرين على قراءة الوجود وموجوداته بإحسان وإتقان، والعاملين بما عرفوه من الحق، هم أكثر الناس خشية

لله بعلمهم وعملهم، ومن لا يوصله علمه للخشية يكون من الذين طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، وما ينجزونه من إنجازات واختراعات لا يكون إلا شاهدا عليهم لا لهم، يدل على عظمة خالقهم، ويشهد على ضلالهم. نسأل الله لنا ولكم العفو والعافية.

نحاول في هذه الرسالة توضيح بعض التيارات السائدة بين المسلمين في محاولة للإجابة على سؤال، لماذا التخلف؟؟؟! وعلاقة ذلك بصحة الإيمان. والله المستعان.